# أسلوب الرسائل الأدبية الدينية الصوفية

## عند الإمام الشاعر المادح سيدي الحاج محمد بن يلّس

## (12711346-هـ/18551927-م) (رحمه الله)

صاحب الزاويتين- زاوية رحمة الله بتلمسان- والزاوية الصمادية بدمشق

أ. بن اعمر حسن

معهد الآداب و اللغات

المركز الجامعي غليزان

**مقدمة وتعريف :**

الإمام الشاعر المادح سيدي الحاج محمد بن يلّس رحمه اللّه ، وليّ صالح تلمساني،ولد سنة 1271هـ/1855م (ويقال 1854م) بمدينة تلمسان العريقة ، تيتّم ابن خمس سنوات فعاش برعاية عمه الحاج محمد ، كان مرضيا مخلصا درس في مسجد سيدي بومدين ومسجد تلمسان الكبير ، وحفظ القرآن في سنّ العاشرة من عمره1.

أخذ العلم في مقتبل عمره عن أستاذه سيدي أحمد بن محمد الدكالي من عربية ونحو وفقه وتفسير وتصوّف2، كما أخذ عن الشيخ العارف باللّه سيدي الحاج محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العزاوي الملقب بالهبري3 صاحب زاوية تاغنيت الذي أذن له بالإرشاد وأمره بتلقين الورد للمريدين ، قال عنه ابن يلّس :

بالهبري تمّ المراد قدمني بالأوراد

كما أخذ العلم عن فقيه عصره سيدي محمد بن أحمد الحرشاوي4 والمحدث سيدي محمد بن الأعرج الفاسي5، المدرسين الجامع الكبير بتلمسان ، والعلامة سيدي محمد بن دحمان العبادي مدرس بمسجد إبراهيم بتلمسان.

اتصل بالشيخ العارف باللّه سيدي حمو بن الحبيب البوزيدي6صاحب زاوي تاجديت بمستغانم وأخذ عنه الورد فقال فيه :

إلى مقام الإرشاد من البوزيدي مأخوذ

كانت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية تضغط على العلماء والفقهاء وشيوخ الزوايا وتراقبهم وتحدّ من نشاطهم الدعوي ، خصوصا إذا كان ذلك لا يتفق مع سياستهم الاستعمارية.

أنشأ الإمام محمد بن يلّس زاويته بتلمسان التي دعيت بـ (زاوية رحمة الله) يعلّم فيها الفقه والتوحيد والتصوف على الطريقة الشاذلية الدرقاوية والذكر والمذاكرة المستمدة من كتاب الله وسنّة رسوله، فكانت مدرسة بحق لتعليم الصبيان وزاوية للمدريدين الكبار ، وقد أسس بها أوّل مدرسة لتعليم الفتيات والنساء في قسم خاص، وتعتبر الأولى التي أدخلت تعليم النساء بتلمسان وما جاورها.

وعندما فرضت السلطة الاستعمارية قانون التجنيد الإجباري لأبناء الشعب الجزائري في الجيش الفرنسي لتدفعهم إلى مستعمراتها العديدة، رفض الجزائريون هذا القانون ونادى العلماء والفقهاء بمقاومة ذلك سلميا قدر الإمكان (خوفا من السلطة الفرنسية) وكان ذلك بدعوتهم للهجرة، وكان من بين من دعا إلى الهجرة الإمام محمد بن يلّس الذي كانت له عدّة محاولات للهجرة والهرب من السلطة الاستعمارية، والتي نجح في آخر مرّة للهروب عن طريق السعيدية المغربية قاصدا بلاد الشام ، وكان ذلك بتاريخ 20 رمضان 1329هـ ، وكان برفقته ابنه أحمد الذي كان آنذاك في سنّ التجنيد ، ويقال أنّ أكثر من ثمانمائة عائلة لحقت به بنفس الأسلوب[7].

ترك الشيخ بن يلس في زاويته خليفته سيدي بن عودة بن الحاج محمد برصالي[8] وهو ابن أخت الشيخ بن يلس.

وصل الشيخ بن يلس الشام يوم عيد الأضحى 15 شوال 1319هـ الموافق لـ 13 أكتوبر 1911م،واستقر فيها واتصل بشيخ الزاوية اليشرطية الشاذلية[9] بدمشق محمد أبو الشامات [10]، وأحبه أهل دمشق وعلماؤها فأوكلوا له الزاوية الصمادية بباب الحديد الشاغور بدمشق وكان ذلك عام 1341هـ، والتي كان يجتمع بها بأكابر علماء الشام وشيوخهم ، وبعد وفاة مفتي المالكية ببلاد الشام أوكلت المهمة إلى الشيخ بن يلّس الذي كان مشهورا باسم الشيخ محمد التلمساني ، وأجري له راتب شهري[11].

كانت الهجرة الجماعية بالنسبة للمستعمر الفرنسي ثورة دون سلاح ، مما دعاهم لحقد على الشيخ الإمام، فانتقموا منه في دمشق بسجنه هو وابنه أحمد ولفقوا له تهمة التحريض ضدّ السلطة ، فقام أبناء دمشق وعلماؤها وشيوخها بمظاهرة عارمة أخرجوا الشيخ وابنه من السجن، وتليت قصائد كثيرة فرحا بخروجه وابنه من السجن من شعراء دمشق وعلمائها ومريديه ، منها هذه القصيدة التي ألقاها الشاعر محمد أبو السعود يقول فيها :

أبشروا أبشروا ذوي الإيمـــان بازدهار نور شيخنا التلمساني
بشّروا الأحباب والأكرم طرا هنـــوا اليـــوم سائر الإخـــوان
لا تظنوا نال الهوان بســـجـــن وابنـــــه لم ينلـــها من هـــوان

كان نشاط الشيخ بن يلّس كبيرا في دمشق ونواحيها ، إمام ومدرسا وخطيبا واعظا مرشدا مفتيا ، ودامت إقامته في دمشق سبعة عشرة عاما ، توفي في دمشق يوم الاثنين 11 جمادى الثانية سنة 1346هـ الموافق لـ 1927م ، عن ثلاثة وسبعين عاما ، وصلى عليه بالجامع الأموي الكبير جموع غفيرة، ودفن في مقبرة باب الصغير قرب ضريح سيدنا بلال الحبشي مؤذن رسول الله وشيّعت جنازته ألوف العلماء والفقهاء والمريدين وبكته دمشق بأسرها[12].

لم ينقطع الإمام محمد بن يلّس بهجرته إلى الشام عند أبناء بلده ومدينته تلمسان، بل كان حاضرا معهم دائما بفضل رسائلهم له، ورسائله لهم، التي ربت على مائة وتسع رسائل مخطوطة، واثنتي عشرة رسالة تفسيرية على انشغالات مراسليه من أبناء تلمسان وغيرها مما جاورها، والتي كانت بأسلوب أدبي شيق دعانا إلى عرضها في هذا المقال، لتكون مثالا لطلبتنا في كلية الآداب واللغات، وكشفا صريحا لأسلوب الرسائل الأدبية الدينية في بداية القرن التاسع عشر، وقد اخترنا من بين تلك الرسائل ؛ الرسالة الثامنة عشرة[13].

كانت هذه سيرة الإمام باختصار، استقيناها من مخطوطات السيرة اليلسية التي جمع وثائقها أحفاده ومريدوه وأودعوها لدى الدكتور جعلوك عبد الرزاق من جامعة تلمسان الذي أتمّ منها أربع كتب ربا كل منها عن مائتي وعشرين صفحة قدمت إلى وزارة الثقافة في إطار احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية لطبعها ونشرها، ولا يزال بها ثلاث أجزاء قيد الوضع ، ساعد في إخراجها الأستاذ قليل عبد الإله وجميع أحفاد الشيخ محمد بن يلّس خصوصا منهم أبناء ابنه محمد رحمه الله، وقد رخص لنا الدكتور جعلوك عبد الرزاق منسق ومدقق ومحقق السيرة الاستفادة منها نيابة عن كل أحفاده.

وهذا النص الحرفي للرسالة الثامنة عشرة :

**الرسالة الثامنة عشرة :**

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من دمشق الشام إلى تلمسان المحروسة 30 ذي القعدة الحرام 1339هـ للهجرة.

أدام الله سعادة أخينا في الله ومحبنا من أجله العارف بالله المقدم إليه سيدي الحاج عبد القادر بن مامشه، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد بلغنا مكتوبكم العزيز وقرأناه ، وفهمنا ما فيه وحمدنا الله على صحتكم وسلامة أحوالكم المرضية، أجراها الله طبق مرامكم آمين، وسؤالكم عنا

فإنّنا بخير وعافية للحمد لله وله مزيد الشكر وبلغ جزيل سلامنا إلى الشيخ سيدي الغوتي البغدادي ووالده وسيدي الغوتي بالحاج الدين وسيدي احميده البريكسي وسيدي محمد بن دي مراد وسيدي محمد كوار وسيدي بومدين التاجر وسيدي عمر البريكسي وولدنا سيدي محمد وكافة الإخوان بعين الجمع، كما يسلم عليكم من طرفنا أولادنا سيدي الحاج أحمد وسيدي مصطفى وسيدي محمد عز الدين وسيدي الغوتي بالحاج وكافة من معنا من الإخوان، هذا وأوصيك بتقوى الله وكثرة الذكر لله وحبة الإخوان وتعظيمهم لله والمذاكرة معهم في الله ويسرنا غاية أن تعود تقرأ للفقراء رسائل مولاي العربي الدرقاوي، والمذاكرة التي يصعب عليكم فهمها تسألونا عليها وتبين لنا نمرة صحيفتها لنوضحها لكم إن شاء الله وأمّا الجواب على سؤالكم فها هو في الوجه الثاني من هذه البطاقة ، فهذا ما لزم وما لنا زيادة إلاّ المحبة الدائمة ، وعليكم جميعا أشرف السلام من كاتبه خديمكم محمد بالهاشمي عن أذن سيدنا المعظم سيدي الحاج محمد بن علي بن يلّس أطال الله لنا بقاءه آمين.

السؤال : قوله صلى الله عليه وسلم : (ليس منّا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعطي لعالم حقه).

**الجواب فهنا هو والله الملهم للصواب :**

قوله صلى الله عليه وسلم : (ليس منّا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعطي لعالم حقه) أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وروى مسلم في صحيحه عن النبي أنّه قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره) ، وقال أيضا : (يا أيّها الناس إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلاّ بتقوى الله ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) ،

وقال سيدي أحمد الحنصلي رضي الله عنه في منظومته (إياكم والاحتقار""""" للكبار والصغار""" بل قالوا حتى الكبار لا تحقر عبدا لله).

قال العلماء لا يجوز احتقار أحد من الخلق ولو كان كافرا لأنّ الخواتم مجهولة ولا يجوز بغض العصاة والكبار من حيث ذواتهم لأنّهم عباد مخلوقون لله، وإنمّا يبغض الوصف القائم بهم، وهو المعصية أو الكفر مع تمني الخير لهم أي بتمني التوبة لهم والهداية ، قال بعضهم : وكيف تحقر من لم تطلع بأنّك خير منه، أي لأنّ العاقبة مجهولة إذ قد يختم للكافر بالإسلام وقد يختم للمسلم بالكفر والعياذ بالله ، فمن أين القطع بالخيرية؟ وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم (إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) وقال سيدي أحمد الحنصلي أيضال رضي الله عنه (الكبير قل أطاع""" والصغير ما أضاع""" ومن في كفره دع""" عله يهديه الله) ، أشار بهذا إلى أدب النظر إلى المسلمين ، قال في المدخل : فانظر إلى من هو أكبر منه سنا أو علما أو أكثر عبادة وانقطاعا لربه عز وجل ، علم أنّه له فضيلة عليه بسبقه للإسلام أو بما خصه الله به من الخصال الحميدة في الشرع الشريف وعلم تقصيره في نفسه فيحترمه ويعظه ويرى فضله عليه وسبقه وإن نظر إلى من هو مثله فينبغي أن ينظر إليه بعين التعظيم لأنّ قد يكون سالما من الذنوب أو تكون له ذنوب لكنها بالنسبة إلى الناظر أقل أذى. إنّ الإنسان يعرف ذنوبه على الحقيقة ولا يعرف ذنوب غيره ، ولعلّه إذا اطّلع على ذنب غيره ، ولم يكن له سوى ما اطّلع عليه وإذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إليه بعين التعظيم والتفضيل لله على نفسه، وإن نظر إلى من هو أصغر منه سنا فيقول هذا أقل منّي ذنوبا ، قد سبقته إلى الدنيا ، وارتكبت فيها ما ارتكبت وهو لم يكن مكلفا فلا ذنوب عليه، وإذا نظر إلى من هو مبلتي في دينه، وغاب عليه سلوك

باب التأويل في حقه فليرجع إذ ذاك إلى نفسه ولينظر منّة الله عليه في الحال في كونه أنعم عليه بما تلبس به من الطاعات وأنّه سليم مما ابتلي به غيره مما هو ممنوع في الشرع الشريف ، ثمّ مع ذلك يذكر نفسه الخاتمة، فإنّه لا يدري بما يختم له، فإن عومل بالعدل فلا يخلصه شيء مما هو فيه من أفعال القرب وإن كثرت، وإن عومل بالفضل قضيت عنه التبعات وقبل منه اليسير من الحسنات، فإنّ فضل الله لا ينحصر في جهة، وعدله لا يؤمن في حال، فإذا نظر إلى الناس بحس هذا النظر ربح وعاد عليه بركة تحسين ظنه بإخوانه المسلمين حالا ومآلا وكان اجتماعه بهم رحمة في حقه وحقهم، وأمّا من باب الإشارة فإنّه يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) يريد عليه الصلاة والسلام أنّ الذي لا يشكر الناس حيث رآهم غيرا وسوى واعتقد وهما وخيالا أنّ الحق تعالى مايابب لهم بأنّه في السماء أو فوق العرش فقط ولم يشكر الله حيث أنّه ما عرفه، وكيف يشكره من لم يعرفه، لأنّه تعالى ما عرفه من عرفه إلاّ في مراتب التقييد والظهور والتعيين،والناس وجميع المخلوقات والأسباب والوسائط مظاهر، وتعيناته ونسبه واعتباراته فإنّها أثار أسمائه وصفاته بل هي عين أسمائه، إذ ليست الصور المحسوسة المشهودة كائنة ما كانت روحانية أو مثالية أو جسمانية إلاّ أسماء الحق تعالى وهي معان اجتمعت فحصلت منها هيئة اجتماعية فكانت صورة محسوسة كما تقول اجتمعت البردة واليبوسة فكانت صورة التراب واجتمعت البردة والرطوبة فكانت صورة الماء مثلا،والعالم كله هكذا الناس وغيرهم، وتعلم الخطاب والحدوث والأمر بالكون هو هذه المعاني لتصير هيئة اجتماعية فتصير صورة محسوسة فمن عرف الله والناس، هذه المعرفة كان شكره للناس شكرا لله وشكره لله شكرا للناس إذ لا اثينية في الوجود ومن هنا كان الفضل الصادر من الناس وجميع المخلوقات بداهة وضرورة هو فعل الله تعالى شرعا وعقلا، فأين الله وأين الناس لمن يعقل وفي هذا كفاية والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومن تمام ذلك ولابدّ تحريض الإخوان على الاجتماع والذكر والمذاكرة والمحبة والتعظيم والظن الحسن والأدب والتسليم ، وتنبهوا واعتنوا واغتنموا وقتكم واستوصوا خيرا ببعضكم البعض وتعاونوا على البر والتقوى وكونوا عباد الله أشقاء واحذروا من رقاد همتكم على الدوام والله ينجيكم من رقادها ، واعلموا يا إخواني بن بالأدب تطوى عنكم المسافة وبه يذهب عنكم ما في الطريق من القحافة ، والصوفية رضي الله لا يعرفون ولا يتميزون إلاّ بالأدب إذ الشرائع كلها أدب مع الحقيقة ولولا الأدب ما ظهرت أسرارها ، ولا أشرقت أنوارها ، وليس في الوجود سوى الحقيقة وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأدب مع الجميع فضلا عنه مع أولياء الله تعالى ، فعلى المريد أن يلزم نفسه الأدب لينال من أسرار القرب العجب وبالأدب الظاهر يحصل أدب الباطن أعني التعظيم إذ سوء الأدب ينشأ عن عدم التعظيم وعدم التعظيم من ضعف المحبة وضعف المحبة من التفات القلب إلى الغير ولا غير عند القوم، ولا يخطر في بالهم سوى محبوبهم، واعلموا أنّ الإنسان يدرك بالأدب ما يدركه غيره بالجد والاجتهاد في كثير من العبادات، وقد قال (ما فاتكم أبو بكر بكثرة الصلاة ولا صوم ولكن بشيء وقر في صدره) أعني الأدب لأنّ العبادات كلها من حيث هي قول وفعل راجعة إلى الأدب، فلا يحيط بها إلاّ من حصله، فالطريق كلها أدب، ومن لا أدب له فلا طريق له، قال مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه : إذا حضر الأدب حضرت الطريق، وإن غاب فلا أدب ولا طريق، والأدب سفينة النجاة فمن ركبها نجا وإن كان علمه قليلا، وقد رأيت الناس من فيه أوصاف حميدة ، مع قلة علمه وقلة فهمه ورونقة تلك الأوصاف ظاهرة عليه، ورأيت من له علم وفهم مع أوصاف مذمومة وقد ظهرت عليه ظلمة تلك الأوصاف، والمؤمن لا يفوق أخاه إلاّ بحسن خلقه لقوله صلى الله عليه وسلم (إنّ الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم وهو غير عابد)

ومن أهمّ الأسباب المعينة على التخلق بأخلاقهم الحسنة كثرة الكر والاجتماع بالذاكرين ومحبتهم وتعظيمهم وإيثارهم وإكرامهم وحسن الظن بجميع المخلوقات والأدب معهم والحياء من سائر المسلمين ويراقب الله فيهم أو يراقب فيهم نور الإسلام الذي هو نور رسول الله الذي هو نور الله ، ويعظم الحياء في حق الأولياء ، أولياءَ الله لعظم نورهم ، ومن علامة رسوخ الإيمان في القلب ظهور الحياء على الجوارح ولبعضهم رضي الله عنه:

ارحم بني جميع الخلق كلهم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقه
وقّر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خلق حق من خلقه

وتأملوا قول سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال :

لا تشتغل بالعتب يوما بالورى فيضيع وقتك والزمان قصير
أتلومهم يوما وأنت مصدق أنّ الأمور جرى بها المقدور
هم لم يوفوا الإله بحقه أتروم توفيقا و أنت حقير
فاشهد حقوقهم عليك وقم بها واستوف منك لهم وأنت صبور
فإذا فعلت فأنت أنت بعين من هو بالخفايا عالم وبصير

وفي هذا كفاية وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل .

**الهوامش**

(1) - مخطوط السيرة اليلسسية : د. جعلوك عبد الرزاق وأحفاد الإمام محمد بن يلّس ، ج1 ، بتصرّف.

(2) - سيدي أحمد بن محمد الدوكالي : مدرس علوم الفقه والتوحيد والتفسير وعلوم اللغة العربية إضافة إلى التصوف ، في المسجد الكبير بتلمسان نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م ، عن السيرة اليلسية ، السابق ، ج1 ، ص 19.

(3) - سيدي الحاج محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العزاوي الملقب بالهبري (1239-1317هـ- 1823- 1899م) شيخ الزاوية الهبرية بتاغنيت بالمغرب ، متصوف صاحب طريقة ومعلم الذكر والإرشاد والقرآن والحديث ، عن السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، لجامعة الحاج مصطفى العشعاشي، تحقيق وتحرير مصطفى يلس شاوش بن الحاج محمد ، يوزع مجانا ، ص 18 ، وبدون ذكر الناشر والتاريخ.

(4) - الشيخ محمد بن أحمد الحرشاوي : فقيه مدرس في الجامع الكبير بتلمسان ، عصر الإمام ، عن السيرة اليلسية السابق ، ص 16.

(5) - سيدي محمد بن الأعرج الفاسي : مدرس في الجامع الكبير بتلمسان ، عصر الإمام بن يلس، عن السيرة اليلسية السابق ، ص 16.

(6) - سيدي حمو بن الحبيب البوزيدي : صاحب زاوية تاجديت بمستغانم ، أصله من قرية سيدي بوزيد على وادي الشلف دائرة مستغانم، وللي صالح حامل لكتاب الله ، صوفي ، اصيب بالفالج في كبره، إذن للإمام بن يلس بإقامة زاوية لتلمسان سنة 1325هـ- 1907م ، توفي سنة 1327هـ- 1909م ، ودفن بزاويته بمستغانم، عن السلسلة الذهبية ، السابق ، ص 95.

(7) - عن السلسلة اليلسية ، السابق ، ج1 ، ف1 ، ص 21.

(8) - بن عودة برصالي : ولد الحاج محمد ، توفي سنة 1337هـ- 1920م ، ابن أخت الشيخ محمد بن يلس وخليفته على زاويته بتلمسان بعد هجرة الشيخ بن يلس إلى الشام سنة 1911م، عن السلسلة الذهنبية ، السابق ، ص 66.

(9) - الزاوية اليشرطية : نسبة إلى الإمام اليشرطي بالشام الشريف، عن السيرة اليلسية، السابق، ج1 ، ف1.

(10) - الشيخ محمد أبو الشامات : شيخ الزاوية اليشرطية عصر هجرة الشيخ بن يلس إلى الشام سنة 1911 وما بعدها ، عن السيرة اليلسية ، ج1 ، ف1 ، باختصار.

(11) - عن السيرة اليلسية ، ج1 ، ف1 ، باختصار.

(12) - عن السيرة اليلسية ، ج1 ، ف1 ، باختصار.

(13) - عن السيرة اليلسية ، ج4 ، (الرسائل اليلسية) ، ص 23.